سلسلة مطويات شبكة بينونة

وتوبوا إلى الله

الشيخ
د. أحمد بن مبارك بن منذل العازمي

www.baynoona.net
@Baynoonanet
@BaynoonanetUAE

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الواحد الغفار، والصلاة والسلام على نبيّنا محمّدٍ من كان يستغفر ربه سبعين مرة في الليل والنهار، اللهم صلِّ عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد..

لا بد للإنسان في هذه الحياة من وقوعٍ في شيءٍ من خطأ وزلة، وهفوة وكبوة، وهذه الذنوب أمراض تضر بالإنسان، فهي تدخل في قلبه الوحشة، وتضيق صدره، وتخمل ذكره، ويبتليه الله بسبب ذنوبه بقرناء السوء، وشيطان يَؤُزُّهُ ويحثه على فعل تلك الذنوب والمعاصي، فتقل بركة ماله وولده، فيكون مظلم القلب، تائه الفكر، متشتتًا مهمومًا مغمومًا بسبب هذه الذنوب، ولا أنفع وأنجع لهذه الذنوب من دواء التوبة، أن يكون تائبًا مستغفرًا راجعًا إلى الله ﷻ، فإنّ العبد مهما وقع في الذنب فإنّ الله ﷻ يغفر له ذلك الذنب إن رجع وتاب وصدق في توبته؛ لذلك هذا المقام الذي هو التوبة والاستغفار مقامٌ مهمٌّ في حياة الإنسان؛ لأن هذه الذنوب إن ما بادر الإنسان بالاستغفار منها نكتت في قلبه تلك النكت السوداء، فإن أهملها نكتة بعدها نكتة، ونكتة بعد نكتة حتى يصبح القلب مسودًّا فيصعب علاجه إلا أن يشاء الله، كالثوب الأبيض إن أهمل غسله وتنظيفه زادت البقع والوسخ فيه فصعب على الإنسان إزالتها، والله ﷻ فتح لنا من رحمته باب التوبة، بل إن الله ﷻ يعلم بوقوعك في الذنب، ومع هذا شرع له هذا الباب، وهو يحب منه تلك التوبة، فإذا علمت أن الله يحب التائبين بادرت إلى التوبة إلى الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾[البقرة: ٢٢٢]، بل من عظيم رحمة الله ﷻ أن الله ﷻ يفرح بتوبة العبد، الله العظيم الكبير القوي المهيمن الجبار يفرح بتوبة هذا العبد الفقير الضعيف، وهذا من كرمه ورحمته بعباده، فيقول النبي ﷺ: «لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ

عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ -كان في أرض فلاة صحراء فانفلتت منه الدابة وذهبت عنه وانقطع في هذه الصحراء- وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ -يعني سيكون هالكه في هذه الصحراء- ، فَأَيِسَ مِنْهَا -لم يجدها- ، فَأَتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا، قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ » [1]، فالله ﷻ يفرح بتوبة العبد إذا تاب، ويحب من عبده الرجوع والانكسار؛ لأن الله ﷻ عظيم غفار، فأمر العباد بأن يتوبوا، فقال: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١]، ويبسط الله ﷻ يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، ويبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار حتى تطلع الشمس من مغربها، فباب التوبة مفتوح، والذنب لا بد من الوقوع فيه، فلابد إذا كان الإنسان يريد نجاة نفسه أن يسرع ويبادر إلى الرجوع إلى ربه فيتوب إليه، وقد أخبر النبي ﷺ: « إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ - وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَبْتُ - فَاغْفِرْ لِي، فَقَالَ رَبُّهُ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا، أَوْ أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ - أَوْ أَصَبْتُ - آخَرَ، فَاغْفِرْهُ؟ فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا، وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَابَ ذَنْبًا، قَالَ: قَالَ: رَبِّ أَصَبْتُ - أَوْ قَالَ أَذْنَبْتُ - آخَرَ، فَاغْفِرْهُ لِي، فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثَلَاثًا » [2]، ما أعظمه من خطاب، وما أعظمه من كلام يشد قلب الإنسان إلى ربه، انظر إلى هذا الرجل يذنب ثم يرجع إلى الله ويقبله، ثم يذنب فيرجع إلى الله فيقبله، ثم يذنب فيرجع إلى الله فيقبله، وهكذا الإنسان كلما تاب ورجع قبله الله ﷻ، فلا تيأس ولا تقنط، ولا يدخل الشيطان

(١) رواه البخاري (٦٣٠٩)، ومسلم (٢٧٤٧) -واللفظ لمسلم-.
(٢) رواه البخاري (٧٥٠٧)، ومسلم (٢٧٥٨).

في قلبك فيقنطك، ويسكن فيه اليأس، هكذا بعض الناس ييأس ويقنط وفي المقابل بعضهم عنده طول أمل أو غرور، أو يغلب جانب التساهل، وبعضهم يقع في الذنب وهو متجرئٌ عليه، لابد على الإنسان أن يكون صادقًا في توبته، في رجوعه يرجع إلى الله بكله، رجوعَ روح وقلب ولسان وجسد، وأعظم الرجوع أن يكون الرجوع رجوع قلب بصدق وندم وألم، فإن كان كذلك كان الله ﷻ له غافرًا ولذنوبه ستارًا

أذكر أيضًا لكم موقفا عظيما أتى رجل إلى النبي ﷺ فقال هذا الرجل للنبي ﷺ: أَرَأَيْتَ رَجُلًا عَمِلَ الذُّنُوبَ كُلَّهَا فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهَا شَيْئًا وَهُوَ فِي ذَلِكَ لَمْ يَتْرُكْ حَاجةً وَلَا دَاجةً -أي: لا صغيرة ولا كبيرة من الذنوب- إِلَّا أَتَاهَا فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟- فعل جميع الذنوب صغيرها وكبيرها فقال له النبي ﷺ-: «فَهَلْ أَسْلَمْتَ؟» قَالَ: أَمَّا أَنَا فَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: «نَعَمْ تَفْعَلُ الْخَيْرَاتِ، وَتَتْرُكُ السَّيِّئَاتِ، فَيَجْعَلُهُنَّ اللهُ لَكَ خَيْرَاتٍ كُلَّهُنَّ» -لاحظ هنا الصدق في التوبة تفعل الخيرات وتترك السيئات، ليست التوبة مجرد قول ودعوة لابد من ألم القلب، ولابد من ترك الذنب، لاحظ الفضل العظيم «فَيَجْعَلُهُنَّ اللهُ لَكَ خَيْرَاتٍ كُلَّهُنَّ» -كل تلك الذنوب تبدل إلى حسنات كما قال الله ﷻ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[الفرقان: ٧٠]، فتعجب ذلك الرجل- قَالَ: وَغَدَرَاتِي وَفَجَرَاتِي؟ -ذلك الغدر وذلك الفجور الذي فعلته- قَالَ: «نَعَمْ» -يغفرها الله لك- قَالَ: اللهُ أَكْبَرُ، فَمَا زَالَ يُكَبِّرُ -يكرّر الله أكبر الله، الله أكبر- حَتَّى تَوَارَى -يعني بعد عن الناس-[٣].

فمهما تكن الذنوب كبيرة، مهما تكن الذنوب عظيمة إن تاب الإنسان ورجع إلى الله ﷻ بدل الله له تلك السيئات فكانت حسنات، فكانت عظيمة في الميزان بإذن الله ﷻ، بل

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير(٧٢٣٥)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣١٦٤).

إن الإنسان مهما كانت ذنوبه فاضحة له بحيث أنها يكون طاريه في المجتمع غيرجيد بسبب وقوعه في بعض المخدرات أو شرب الخمر أو عرف بالفحش والزنا أو عرف بالسرقة، أو أي نوع من أنواع الذنوب إن تاب وصدق بعد توبته بفعل الخيرات فالله ﷻ يقلب حال الناس بعد أن كانوا ذامّين له بأن يصبحوا مادحين له حابّين له، وأضرب لكم قصةً بالفضيل بن عياض، الفضيل بن عياض كان عاصيًا لربه، -إمام من الأئمة- ومسرفًا على نفسه بالخطايا والذنوب حتى أنه كان يتعدى بيوت الناس، وقاطع طريق ويسرق الأموال، وكان الناس يهابون فضيلاً إذا سافروا؛ لأنه قاطع طريق فعدا يومًا من الأيام على بيت فسمع آية، سمع شخصًا يردد آي ة يقول فيها: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]، اسمع هذه الآية حاول أن تتدبر ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ فوقعت تلك الآية في قلبه، فقال: بلى يا رب قد آن، بلى يا رب قد آن، فتاب وتاب الله عليه، وأصبح الفضيل بن عياض صاحب الكلمة الجميلة، الإمام المعروف حتى قال عبد الله ابن المبارك: «ما بقي على ظهر الأرض عندي أفضل من الفضيل بن عياض» سبحان الله لاحظ كيف تبدل الحال بعد أن كان الناس يخافونه صار الناس يحبونه، يرجعون إليه، فهكذا الإنسان لابد أن يكون راجعًا إلى الله مهما بلغ الذنوب، ولو بلغت الذنوب عنان السماء إن تاب الإنسان واستغفر غفرها الله ﷻ له كما قال النبي في الحديث القدسي: قال الله ﷻ: « يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي، غَفَرْتُ لَكَ، يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً »[٤].

(٤) رواه الترمذي (٣٥٤٠)، وصححه الألباني.

وتأملوا آية مهمة في هذا المقام تفتح قلب كل إنسان لكي يرجع إلى الله ﷻ مهما كانت ذنوبه ومعاصيه قال الله ﷻ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[الزمر: ٥٣]، هذه الآية أقوى آية رجاء كما قال بعض الصحابة ﭫ، الله ﷻ ينادي جميع العباد دون استثناء ينادي الذين أسرفوا على أنفسهم بالوقوع في الذنوب والمعاصي الكثيرة والكبيرة: ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ لمن تاب ورجع إلى الله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ إذًا بادر.

أسرع وحثّ السير جهدك إنّما مسراك هذا ساعة لزمان

الموت يدرك الإنسان والحياة متقلبة قصيرة، الإنسان يكابد في هذه الدنيا مشاق وهموم ومتاعب، فلا تزيد عليك المشقة مشقة ببعدك عن الله ﷻ بوقوعك في الذنوب والمعاصي، أحبتي كما قال الحسن البصري: مهما بلغ بأهل الذنوب من الدنيا فإنّ ذل المعصية لابد أن يكون في قلوبهم وعلى وجوههم مؤثرة.

فليبادر الإنسان فإن النبي ﷺ مع أنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر كان يستغفر الله ﷻ ويتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة [٥].

نسأل الله ﷻ أن يغفر لنا ويرحمنا، وأن يجعلنا له تائبين راجعين أوّاهين، وأن يحفظ بلادنا، ويزيل عنا هذه الجائحة -جائحة كورونا- وأسأله ﷻ أن يحفظ بلادنا، ويوفق ولاة أمرنا، وأن يغفر لي ولكم ولآبائنا وأمهاتنا.

وصلى الله على نبيّنا محمّدٍ وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

---

(٥) رواه البخاري (٦٣٠٧).